المدرسة الكوفية والمنهج النحوى منها

أ. أسدارى*

Abstract: *In the study of the science of naḥwu and ṣaraf (Arabic grammar) there exist two opposing schools of thoughts, namely the School of Basrah which came earlier and the School of Kufah which appeared after that. The School of Basrah based its way of study through the definite Arabic methods and principles, such as in the determination of Arabic vocabularies which they believe originated from verbs. Whereas the School of Kufah determine Arabic vocabularies through what they have heard from their ancestors whether through poems, prose, and others thus not needing a definite principle as is adopted by the School of Basrah.*

Keywords: *المدرسة البصرية و المدرسة الكوفية و النحاة*

من المعلوم أنه إذا تحدثنا عن النحو والصرف وتطورهما، وجدنا هناك مدرستين تواجهان وتقابلان، وهما مدرستا بصرة وكوفة. فالمدرسة البصرية أسبق ظهورا من المدرسة الكوفية، التى نشأت فى صدر القرن الثانى أو قبله بسنوات عديدة. والمدرسة الكوفية نشأت بعدها فى النصف الأخير من القرن الثانى فى حين نما النحو البصرى وتطور[1] واستخدم يمنهجه. ومن البديهى أن ظهور مدرسة يليها مدرسة أخرى تقابلها جاءت رد فعل أو رافضا للأولى. وبهذا يمكن للخلاف إما فى المسائل الأصولية وإما فى

* قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومية جاكرتا.

مسائل القواعد الجزئية. و شهد القرن الثانى المعركة الكبيرة فى النحو و الصرف بين مذهب البصريين و الكوفيين.[٢]

فى هذا الصدد، لا يريد الباحث أن يبسط الكلام عن خلافات الضخمة بينهما بل و يقتصر بيانه على المدرسة الأخيرة بيانا شاملا ليعرف خواصها عن المدرسة الأولى بالإضافة إلى تقديم المنهج الذى أسسه الكوفيون و سلكوه على طريقتهم المثلى.

نشأة المدرسة الكوفية

نشأة المدرسة الكوفية، طبعا، بعد ظهور نحاتها الذين أسسوا المنهج النحوى منها. ومن النحاة الكوفيين الأوائل أبو جعفر محمد بن الحسن الرؤاسى (ت. ١٧٥هـ). فالرؤاسى على قول معتمد هو النحوى الكوفى الأول يعاصره الخليل بن أحمد الفراهيدى (ت. ١٨٣هـ) الذى قد بعث إليه يطلبه فأرسله، وأن سيبويه، تلميذ الخليل، نقل فى كتابه عندما نقل عن البصريين.[٣] يقال إنه يرجع إلى الرؤاسى بدء النحو فى الكوفة دراسة و تأليفا، وكتابه *الفصيل* أول مؤلف فى النحو فى الكوفة.[٤]

هل كان الرؤاسى مؤسسا للنحو الكوفى؟ إنه يرى بعض النحاة أن من – أسس على المذهب الكوفى ووضع قواعده هوأبو الحسن على بن حمزة الكسائى (ت. ١٨٩هـ)، كما قال شوقى ضيف إنما يبدأ النحو الكوفى بدءا حقيقا بالكسائى وتلميذه الفراء. فهما اللذان رسما صورة هذا النحو ووضعا أسسه وأصوله، وأعداه بحذقهما وفطنتهما لتكون له خواصه التى يستقل بها عن النحو البصرى، مرتبين لمقدماته، ومدققين فى قواعده، وتخذين له الأسباب التى ترفع بنيابه.[٥]

و معقول أن المؤسس الحقيقى هو الكسائى، لأن الراؤسى الذى أخذ النحو عن عيسى بن عمر و أبى العلاء يغتبر نحويا لم يدل فى النحو بآراء ذات قيمة بدليل أن اسمه لم يدر فى كتب النحاة التالية لعصره، وفيه يقول أبو حاتم : كان بالكوفة نحوى يقال له أبو جعفر الرؤاسى، وهو مطروح العلم ليس بشئ.[٦]

منهج النحو الكوفى

و معلوم أن لكل مدرسة منهجها و طريقتها، فالمنهج الذى أقام الكوفيون يختلف منهج البصرى. لذا اتخذ كل من المدرستين سبيلا له خاصة عرف بها حتى صار لكل طابع يخالف طابع الاخر. و المذهب البصرى، كما هو معلوم، اعتمد على أن اللغة يسودها نظام مطرد بقوانين محدودة مستقاة من الأساليب العربية الصحيحة المتضافرة على أمثالها. لذلك كان حتما مقضيا أن يسلك البصرى فى أصول مذهبه مسلك الشدة و المحافظة على المأثور على طريقة السماع. أما مسلكه احترامه لكل ما ورد مسموعا من العرب و كفى. و التيسير للناس أن يستعملوا استعمالاتهم على مقتضى ما أثر عنهم، فلا ضير على القائل متى حاكى أى استعمال كان، وما القواعد إلا وليدة اللغة فهى ذات لالسلدان عليها دون العكسى. هذا مع الترخيص بالقياس على مقتضى الرأى فقد الشاهد. وما كان ذلك من الكوفى إلا تأثرا بنزعته الطبيعية أيضا.[٧]

مما سبق ذكره يرى أن المنهج الذى سار إليه الكوفيون يفترق المنهج البصرى على المعارين الآتيين : ١. سلك الكوفيون فى أصول مذهبهم مسلك التيسير للناس و كفاية ما ورد من العرب مسموعا. فالأمور الأربعة التى تخلفت عن القياس عند البصريين حسب المقتضات من التأويل والشذوذ و الاضطراب و الاستنكار قد قلت و شذت عند الكوفيين. ٢. أن الأقيسة التى اعتمد عليها البصريون فى تدوين مذهبهم على العكس من ذلك فهى قليلة عندهم بالنسبة إلى الأقيسة التى تكون منها المذهب الكوفى. ومن ثمت اشتهر مذهب البصريين بأنهم أهل السماع. وأما الكوفيون فقد اشتهروا أنهم أهل قياس، لأنهم لو سمعوا بيتا واحدافية جواز شيئ مخالف بالقياس البصريين.[٨] ولذا يقول الكسائى :

إنما النحو قياس يتبع #
وبه فى كل أمر ينتفع

موقف الكوفيين من السماع

و معلوم أن السماع من أهم أدلة النحو. و المراد بالسماع ما أخذ من العرب شعرا و نثرا، واستدل بها

النحاة فى استنباط القواعد النحوية، و هؤلاء العرب هم عرب البدو من جزيرة العرب إلى أواسط القرن الرابع الهجرى و عرب الأمصار إلى نهاية القرن الثانى الهجرى، وتسمّى هذه العصور بعصور احتجاج.[9]

خلافا على موقف البصريين من السماع موقفا دقيقا على شروط مختلفة ،[10] فإن الكوفيين سمعوا من قبائل العرب جميعا، وأخذوا عن كل رواة واعتدوا بكل مسموع وأقاموا عليه قاعدة نحوية، أى أنهم لا يكتفون بلغات الأعراب التى اعتمد عليها البصريون، وإنما كانوا يأخذوان كذلك عن كثير ممن كان البصريون لا يأخذون عنهم ولا عن قبائلهم المقيمة فى مواطنهم الأصلية مثل تغلب وبكر لمخالطتهما بالفرس وعبد القيس النازلة فى البحرين لمخالطتها الفرس والهند.[11]

و من الأمثلة التى تدل على اتساع الكوفيين بالاستشهاد بالمسموع من الكلام الشعرى والنثرى ما يلى : ١. ما عرضه الأنبارى أنه جوز الكوفيين ما منعه البصريون من اجتماع الألف وللام وحرف النداء (يا) محتجين بقول الشاعر :

فيا الغلامان اللذان فرا# إيا كما أن تكسبانى شرا[12]

بينهما منع البصريون هذا الحكم قياسا لشذوذ ما فى البيت. ٢. ما عرضه الاستراباذى من أن الكوفيين جوزوا عمل أن المحذوفة قياسيا بحجة قول العرب (خذ اللص قبل يأخذك، وتسمع بالمعيد خير من أن تراه) بينما منع هذا البصريون قياسا، فقالوا بأن هذا شاذ يحفظ ولا يقاس عليه.[13]

هكذا، ولعل أهم ما يميز المدرسة الكوفية من المدرسة الصرية اتساعها فى رواية الأشعار و عبارات اللغة عن جميع العرب بدويهم و حضريهم، بينهما النحوية إلا من سمعوه من العرب الفصحاء الذين سلمت فصاحتهم من شوائب التخضر وأفاته، وهم سكان بنى نجد والحجاز وتهامة من قيس وتيم وأسد.

موقف الكوفيين من القياس

والقياس هو الأصل الثانى — بعد السماع — من أصول النحو. و المراد به حمل فرع على أصل لعلة

جامعة بينهما، أو على عبارة أخرى "محاكاة العرب فى طرائقهم اللغوية فى صوغ اصول المادة وفروعها وضبط الحروف وترتيب الكلمات وما يتبع ذلك من إعلام وإبدال وإدغام وحذف زيادة أو بكلام أخر فى الإعراب أو البناء أو التصريف.[١٤]

و القياس على الوجه السابق يقتضى أمرين هما معرفة العرب الذين نحاكيهم دون غيرهم، ومعرفة اللغة التى يقاس عليهما و مبلغ صلاحها لذلك.[١٥] و لصلاح القياس، يشترط قياس الفروع على صحيح الأصول، ولا قياس إذا صحت الفورع وفسد الأصول. وهذا مستحيل، مثلا، أن ينفض أول الكلام باخره، وذلك كقولك : قمت غدا، وسأقوم أمس.

فإن قلت فقد تقول : إن قمت غدا قمت معك، وتقول : أعزك الله، وأطال بقاءك. فتأتى بلفظ الماضى ومعناه الاستقبال، وقال :

ولقد أمر على اللئيم يسبنى#

فمضيت ثمت قلت لا يعنينى.

أى ولقد مررت.[١٦]

ولا بد لكل قياس من أربعة أشياء، اصل (المقيس عليه)، وفرع (المقيس)، وعلة، وحكم. وذلك مثل أن نركب قياسا فى الدلالة على رفع نائب الفاعل، فنقول : (اسم اسند الفعل إليه مقدما عليه فوجب أن يكون مرفوعا قياسا على الفاعل) فالأصل هو الفاعل والفرع هو نائب الفاعل، والعلة الجامعة هى الإسناد والحكم هو الرفع.[١٧]

فالكوفيون فقد أجازوا القياس على المثال الواحد من المسموع، إن كان القياس على لغة القرآن ونحوه، و على ثلاثة أمثلة من المسموع — على القول الحكم — إن كان على غيرها. وهم يعتبرون اللفظ الشاذ فيقيسون عليه ويبنون على الشعر الكلام من غير نظر إلى مقاصد العرب و لا اعتبار بما كثر أو قل.[١٨]

وأما جمهورالبصريين ومن دار فى فلكهم فقد تركوا الأمر مبهما خلوا من التحديد. وهم لا يرضون بالمثال و لا بالمثالين ولا الثلاثة ولا الأربعة و الخمسة ولا الستة. و قد كان فى عمل إن وأخواتها ستة أمثلة ورادة شاذة لم تكف عند البصريين للقياس عليها لعلة عددها فى تقديرهم.[١٩] ذلك كما يلى : ١. إن حراسنا أسد. ٢. إن

العجوز حية جزورا. ٣. ألا ليتنى حجرا بواد. ٤. ياليت أيام الصبا رواجعا. ٥. لعل زيدا أخان. ٦. كأن أذنية إذا تشوفا # قادمة أو قلما مجروفا.

خاتمه

إن للمدرسة الكوفية – بالرغم من أنها أنشئت على حدود العراق وهى بعيدة عن هؤلاء العرب الفصحاء – جوانب خاصة يعتمدها نحاتهاعلى القواعد المستقلة. والمنهج النحوى الذى سلكه الكوفيون يقوم على أساس استقلال قواعدها مثلا فى جعل القياس أصلا أول من الأصول النحوية الأخرى حتى اشتهرت المدلاسة بأصحاب القياس. ومن خصائص أهل القياس مايلى : ١. اتساعهم فى الرواية بيحث لا يتشددون فى فهم الفصاحة كما تشدد البصريون. ٢. اتساعهم فى القياس، ولا يشترط الكوفيون الكثرة عند القياس. ٣. استعمال مصطلحات غير ما أشاعه البصريون من مصطلحات النحو.

الهوامش:

١. اعتبر الطنطاوى أطوار النحو أربعة : الوضع والتكوين (بصر)، طور النشوء النمو (بصر-كوف)، طور النضوج و الكمال (بصر-كوف)، طور الترجيح و البسط فى التصنيف (بغدادى وأندلوسى ومصرى وشامى)، محمد الطنطاوى، *نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة*، (دم: دار المنار، ١١٩١)، ص ١٩

٢. أحمد أمين، *ظهر الإسلام*، (القاهرة : مكتبة النهضة، ١٩٦٦)، ط ٤، ج ٢، ص١١٥.

٣. محمد الطنطاوى، *المرجع السابق*، ص ٨٠-٨٩

٤. *نفس المكان*

٥. شوقى ضيف، *المدارس النحوية*، (القاهرة : دار المعارف، دت)،ط ٢، ص ١٥٤.

٦. *نفس المكان*

٧. محمد الطنطاوى، *المرجع السابق*، ص ٩١ - ٩٢

٨. أحمد باحميد، النحو ونشأته عند البصريين والكوفيين، (*التراث*، مجلة تاريخية ثقافية أدبية، بجاكرتا، ١٩٩٦)، المجلة ٢، العدد٥، ص ١٢ - ١١٠

٩. د. هدايات، الخلاف المنهجى بين المدرستين البصرية والكوفية، (منبر : مجلة دينية ثقافية بجاكرتا، سبتمبر ١٩٩٩)، المجلد ١٦، العدد ٤، ص ٨٢ نقلا على على عبد الواحد وافى، *فقه اللغة*، (القاهرة : دار النهضة، دت)، ط ٨، ص ١٧٢

١٠. وهى الأخذ من قبائل العرب الفحيحة، وسلامة اللغة المأخوذ عنها، والتأكيد من

الثقات فى صحة المروى، وكون المسموع كثيرا، د. هدايات، *المرجع السابق*

١١. *نفس المكان*

١٢. أبو البركات الأنبارى، *الإنصاف فى مسائل الخلاف*، (القاهرة : مكتبة محمد على صبيح و أولاده، ١٩٥٣)، م ٤٦، ص ٢٠٨ — ٢٠٩.

١٣. د. هدايات، *المرجع السابق*، نقلا على رضى الدين الاستراباذى، *شرح الكافية فى النحو لابن حاجب*، (بيروت : دار الكتب العلمية، دت)، ج ٢، ص ٢٥١.

١٤. عباس حسن، *اللغة النحو بين القديم والحديث*، (القاهرة : دار المعارف، دت)، ط ٢، ص٢٢ .أنظر أيضا، د. هدايات، *المرجع السابق*

١٥. *نفس المكان*

١٦. أبى الفتح عثمان ابن جنى، *الخصائص*، (بيروت : دار الكتاب العربى، دت)، ج ٣، ص ٣٣٠ — ٣٣١.

١٧. د. هدايات، *المرجع السابق*

١٨. حسن عباس، *المرجع السابق*، ص ٣٨

١٩. *نفس المكان*

المراجع

ابن جنى، أبى الفتح عثمان، *الخصائص*، بيروت : دار الكتاب العربى، دت، ج ٣

الأنبارى، أبو البركات، *الإنصاف فى مسائل الخلاف*، القاهرة : مكتبة محمد على صبيح والاده، ١٩٥٣، م٤٦

الطنطاوى، محمد، *نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة*، دم: دار المنار، ١١٩١

أمين، أحمد، *ظهر الإسلام*، القاهرة : مكتبة النهضة، ١٩٦٦، ط٤،ج٢

باحميد، أحمد، النحو ونشأته عند البصريين والكوفيين، *التراث*، مجلة تاريخية ثقافية أدبية، بجاكرتا،١٩٩٦، المجلة ٢، العدد ٥.

حسن، عباس، *اللغة النحو بين القديم والحديث*، القاهرة : دار المعارف، دت، ط ٢.

حسن، تمام، *الأصوا دراسة استيمولوجية للفكر اللغوى عند العرب*، القاهرة : الهيئة اللصرية، ١٩٨٢.

ضيف، شوقى، *المدارس النحوية*، القاهرة : دار المعارف، دت، ط٢

هدايات، د.، الخلاف المنهجى بين المدرستين البصرية والكوفية، منبر : مجلة دينية ثقافية بجاكرتا، سبتمبر ١٩٩٩، المجلد ١٦، العدد ٤.